Muhammed el-Feytûrî'nin Şiirlerinde Aşk Teması [*]

Ala ELHİLAL[**]

ÖZ

Gazel, Arap edebiyatında hiciv, ağıt ve övgü gibi diğer edebi türlere kıyasla en eski ve en yaygın şiir türlerinden biri kabul edilir. Bunun temel nedeni, gazelin doğrudan insanın doğası ve yaşam deneyimleriyle bağlantılı olmasıdır. Gazel, içeriği itibariyle kalpleri harekete geçiren ve duyguları uyandıran bir özelliğe sahiptir. Bu nedenle şairler, bu şiir türüne diğerlerinden daha fazla ilgi göstermiş, aşkı içten duygularla ve güzel imgelerle betimlemişlerdir. Aşk, tüm insanlar arasında ortak bir duygu olduğu için, insanlar aşk şiirlerini dinlerken büyük bir keyif alırlar ve her birey, bu şiirlerin kendi hikayesini ve acılarını anlattığını düşünür.

Anahtar Kelimeler: *Arap Edebiyatı, el-Feytûrî, Modern Şiir, Huzur, Aşk.*

Models of Love in the Poetry of Muhammad Al-Feyturi

ABSTRACT

Courtship in Arabic literature is one of the oldest and most popular forms of poetry compared to other literary genres such as satire, elegy, and praise. The main reason for this is its direct connection to human nature and life experiences. Courtship is characterized by its content that excites hearts and moves emotions, which is why poets have shown a special interest in this type of poetry more than others, as they have depicted love with sincere feelings and beautiful images. Because love is a feeling shared by all people, they enjoy listening to love verse where each one believes that this poetry tells their own story and grief.

Keywords: *Arabic Literature, Al-Feytūrī, Modern Poetry, Peace, The Love.*

---

[*] Makale Geliş Tarihi/Received: 29.10.2024 / Makale Kabul Tarihi/Accepted: 18.11.2024

[**] ماجستير في الأدب العرب العربي، باحث دكتوراة بجامعة نجم الدين أربكان . قونيا . تركيا

alaelhilal@gmail.com ORCID NO: 0000-0001-5594-1797

نماذجُ مِن الحبُّ في شعر محمّد الفيتوري

ملخص:

يعدُّ الغزل في الأدب العربي، من أقدم فنون الشعر وأكثرها شيوعًا مقارنةً بالأنواع الأدبية الأخرى كالهجاء والرثاء والمدح. والسبب الأساسي لذلك هو ارتباطه المباشر بطبيعة الإنسان وتجارب حياته. يتميز الغزل بمحتواه الذي يثير القلوب ويحرك المشاعر، ولهذا السبب أظهر الشعراء اهتمامًا خاصًا بهذا النوع الشعري أكثر من غيره، حيث صوروا الحب بمشاعر صادقة وبصور جميلة. ولأن الحب شعور مشترك بين جميع البشر، فإن الناس يستمتعون كثيرًا بالاستماع إلى أشعار الحب، وكل فرد يعتقد أن هذا الشعر يروي قصته الخاصة وآلامه.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي، الفيتوري، الشعر الحديث، السلام، الحب.

مقدمة:

الغزل أحد الأغراض الشعرية التي اشتهرت في الشعر العربي منذ القديم، كالمديح والرثاء والهجاء، لكنه أكثر شيوعاً من الفنون الأدبيّة الأخرى، لأنه يتّصل بطبيعة الإنسان وتجاربه، ويحرّك القلوب والمشاعر. والناس يجدون لذّة في سماع أشعار الحب فيتخيّل كل واحد منهم بأنّ هذا الشعر يصوّر حياته ويتناول قصته ومعاناته. وقد أخذت المرأة مكانتها في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وحتّى يومنا هذا. فقد أعلى الشعراء شأنها،

لأنها رمز الحب والجمال والعذوبة، وبهذه الصفات ذكرت في الشعر العربي والقصائد العربية بأجمل الأوصاف وأعذبها.[1]

لقد كتب الشعراء ومازالوا يكتبون قصائد غزل، وموشحات تتحدّث عن العشق والمرأة المحبوبة، ومع ذلك كلّه فإن الإنسان لا يَمِلُّ من تلك الأشعار والقصائد، لأنّ الغزل والحب شيءٌ قريبٌ جداً من النفس البشرية.[2] وقد استطاع أكثر الشعراء الذين كتبوا قصائد الغزل أن يُقدّموا للناس تجاربهم العاطفية في قالب فنّي جميل.[3]

لقد تمكّن شعراء العصر الحديث من التفوّق على شعراء العصور القديمة، من حيث سعة الخيال وكثرة الاستعارات والتشبيهات والكنايات، وهذا شيءٌ طبيعي فالصور والأخيلة والمناظر هذه لم تكن في العصور القديمة كما هي في العصور الحالية، ولم يعد الشاعر الحديث يرى المرأة حبيبة فقط، بل أصبح يرى فيها المرأة المناضلة الشجاعة المتحرّرة التي تسعى بشكل دائم إلى التغيير، ومن هذا المنطلق كان وجودها في العصر الحديث وجوداً عاماً لا يحده زمان ولا مكان، يتحدّث عنه الشاعر في أغلب الأحيان بحديث الغائب المجهول، وأحياناً يخاطبه خطاباً سامياً عالياً رفيعاً ليس فيه من أطماع الدنيا شيء.[4]

---

[1] محمد جميل غازي، الصوفية الوجه الآخر، المركز الإسلامي العام، القاهرة، 1983، ص 47

[2] الغزل في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب، بيروت، لبنان، ص 8

[3] اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، الأردن، ط2، 1992م، ص164.

[4] أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، ط6، 1994، ص 312

ومن الطبيعي أن نظرة الشعراء كلها لم تكن موحدة إلى المرأة، فالبعض كان يراها مصدر إلهامه وقوته وسبب سعادته، ولكن بعضهم كانوا يعبرون عن خيبة أملهم بها، ويصوّرنها بأنّها قليلة الوفاء، كثيرة الخيانة، وهي لا تفي في كثير من الأحيان، فإن أسعدتك يوماً فلا بدّ أن تقتلك دهراً، فالوفاء عندها لحظات معدودة، ومن ثم ترحل تاركة الحزن والعذاب.

وكما يقول الدكتور سراج الدين محمد "إنه لا حاجة في الحب إلى فلاسفة أو محللين، بل هو بحاجة إلى شعراء وفنانين."[5] والفيتوري هو أحد من أجادَ في هذا الباب. فمن هو هذا الشاعر.

1. محمد الفيتوري:

هو محمد مفتاح رجب الفيتوري، هذا ما اتّفق عليه أغلب الأدباء مثل حنفي رضوان في كتابه "الفيتوري عذاباته سرار إبداعاته"، وحسن صالح التوم في كتابه "الاتّجاه الافريقي في الشعر العربي المعاصر"، وعوض حسن علي المحمد في كتابه "الشعر السياسي في العالم العربي."[6] ولد 1936م، في مدينة الجنينة التي تقع بين ليبيا والسودان، ونشأ في مدينة الإسكندرية في مصر، وحفظ القرآن الكريم.[7]

---

[5] الغزل في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب، بيروت، لبنان، ص 14.

[6] الفيتوري عذاباته سرار بدعاته، حنفي رضوان، مكتبة البيان، الكويت، 2003، ص 2

حسن صالح التوم، الاتّجاه الإفريقي في الشعر السوداني المعاصر، دار الشروق، عمان، الأردن 1990، ص 22

الشعر السوداني في العالم العربي، الفيتوري أنموذجاً، جامعة السودان للعلوم، 2003، ص 4.

[7] الفيتوري عذاباته سرار بدعاته، حنفي رضوان، مكتبة البيان، الكويت، 2003، ص 2

لُقب الشاعر بالفيتوري، وكلمة الفيتوري تنسب إلى الفواتير، وهم عرب من بني سعيد، وهي ثاني أكبر العشائر في ليبيا من حيث العدد، وهي من القبائل التي عُرفت بالتقوى والدين والصّلاح والهدى، واشتهروا بالكرامات والمعجزات، كانوا يتبعون الطريقة الشاذلية في تصوفهم، ولاقت هذه الطريقة رواجاً كبيراً وانتشرت في أماكن متعدّدة مثل باقي الطرق الصوفية، لُقِب الفيتوري في العصر الحديث بشاعر إفريقيا والعرب، شاعر الالتزام.[8]

وأما والده فهو الشيخ مفتاح رجب الفيتوري، وكان خليفة خلفاء الطريقة العروسية الشاذلية الأسمرية. (وكانت هي أول طريقة صوفية عرفها السودان، وهي تنسب إلى أبي حسن الشاذلي). وكان من أصحاب العلم، وقد توفي في 26 شباط في عام 1969م.

وأمه **اسمها عزيزة**، هي من قبيلة الجهمة العربية، وهي من القبائل العربية الحجازية التي هاجرت من مصر إلى ليبيا، وكانت تشتهر بالفروسية والتجارة.[9]

نشأ الشاعر الفيتوري في مدينة الإسكندرية، في حي القباري، وألّف عدة دواوين أولها أغاني إفريقيا"، عام 1955 م، ثم "عاشق من إفريقيا" عام 1964م، ثم "اذكريني يا إفريقيا" عام 1966.

[8] الاتجاه الإفريقي في الشعر السوداني المعاصر، حسن صالح التوم، ص 24.

[9] ديوان الفيتوري، 1/195-196.

توفي الفيتوري في يوم الجمعة 5 رجب 1436هـ الموافق لـ 24 أبريل 2010م، في المملكة المغربيّة بعد صراع مع المرض في إحدى مستشفيات الرباط عن عمر بلغ 79 عاماً.[10]

2. الفيتوري والحب:

الحبّ جوهر الإنسان، ومنذ أن خلق الله الدنيا، وخلق آدم وحواء وجدت الأشعار التي تتحدّث عن العشق والهوى، ومن يراجع التراث العربي القديم يلاحظ أن الشعر العربي مليء بقصائد الغزل والحب، ولا يخفى على أحد ذلك العشق الكبير بين عنترة وعبلة، وقيس وليلى، وبين ابن زيدون وولادة بنت المستكفي، فكل هؤلاء الشعراء نقلوا لنا تجاربهم الخاصة عن طريق أشعارهم الغزلية. الفيتوري شاعر حاله كحال أي إنسان يحبّ ويعشق، وكما هو معلوم فإنه عانى الكثيرَ الكثيرَ جراء الحروب التي عاشها في السودان، وقد عاش ما عاناه أبناء الوطن العربي من مآسٍ كثيرة ونفي ونزوح، فيريد لنفسه أن ترتاح قليلاً، أن تبتعد عن عالم الماديات إلى عالم العشق الروحي الذي ليهرب من مشاكل الحياة وصعوباتها وظلم الاحتلال وقهره، علّه يجد في هذا الحب موطناً لنفسه المتعبة ولروحه اليائسة ففي قصيدته "النهر الظامئ" يصرخ من أعماق قلبه قائلاً":[11]

أكاد لا أبصرُ حيث ارتمتْ عيناي

إلا دمَ أَشواقي...

[10] الشعر السياسي في العالم العربي، عوض حسان، 2012، ص 57.

[11] ديوان الفيتوري، 197/1

أطفئ بإعصارك هذا اللّظى الأسود

فمن يتمعّن قصيدته جيداً يلاحظ معاناته وصرخاته وكأنه يقول "يكفي حزن وظلم وقهر ونزوح وتشرد وحرب، أنا أيضاً إنسان أريد أن أعشقَ وأُعشق، أريد أن أقع في الحب لأتخلص من عالم الأشياء وحينها أستطيع عبادة الله كما هي واجبة، فكما أنَّ عبادة الله تحتاج إلى طمأنينة فالحبّ عنده أيضاً يحتاج إلى السلام والأمان، فنار الحبّ هي الوحيدة التي تُخلّصه من هذا الواقع المؤلم الأسود " أطفئ بإعصارك هذا اللظى الأسود"، وهو بطبيعته نهر من الحب والعشق الذي لا ينتهي، لكن هذا الواقع المرير والظروف التي عاشها منعت عنه رؤية ذلك الأمان المتمثّل بالحبّ. وهنا يُشبّه الحبيبة بالساقي، فهي من تروي عطش روحه، لأنَّ روحه بحاجه إلى من يساندها ويكمّلها، ففي تلك الروح عطش قاتل لا يرويه إلا الحب.[12]

أعيدوا العزفَ

إنّ حبيبتي تُصغي

وبيّ نهرٌ سماويٌّ

من العشق لا يَفنى

[12] ديوان الفيتوري 1/ 138.

1.2. الحبّ مصدر الطمأنينة:

"الحبّ قوة كونية كبرى، لأنه هو الذي يحرّك الشمس، وباقي الأجرام السماوية."[13] والإنسان يحنُّ إلى الحب الصافي، وتتوق نفسه إلى السلام العميق الذي لا تشوبه شائبة من صراع أو حرب، والحب يُشعِر الفيتوري بالطمأنينة والراحة، فهو قبل أن يقع في العشق كان تائهاً لا يعرف الطريق، فهو غير معتاد على الهناء والسرور لذلك شعر عندما قابل تلك المحبوبة بأن خنجراً قد انغرس في قلبه، فغير حياته، فيخاطب محبوبته قائلاً:[14]

سَيدَتي...
لو لامستَ عينيكِ هَذي الكلمات العاشقات
فاعتذري عني لعينيك
لأنني اتكأتُ في ظلها ذات مساء
داعبتُ في سكونها النجومَ والقمرَ
سيدتي
حين التقينا صدفة لقاءَ الغُربَاء
كانت كآبتي مِثْلي تَمشي في الطريق
والحُبُّ يا سيدتي في وطني غَريبٌ

[13] تأملات وجودية، زكريا إبراهيم، دار الآداب، بيروت، 1962، 106

[14] ديوان الفيتوري، 408-409.

يقتله الفراغُ والعدمُ

وانتفضتَ روحي حين رأيتُك يا سيدتي

شعرتُ فجأة، كأنّ خنجراً يغوص في دمي

يغسِل قلبي وفمي

لم تكن حياته حياة رفاهية وغنى ولم تكن حياة تعرف الاستقرار والأمان، ولكن وسط كل هذه الأوجاع رأى الحب يدخل قلبه، رأى الحب في وطن لا يعرف بالحب، في وطن لا يعرف سوى طعم الدم والبارود ولكن عيناي تلك الجميلة أخذت قلبه، وعاش قصّة حبّ عوّضته عن تلك الأيام السوداء، وإن أتيحت له الفرصة ومرّ من الطريق مرّة أخرى فسوف يقبّله مرّتين، مرّة لأجل عينيها ومرة أخرى لأنّه كان السبب في لقائهما، وكأنّه هنا يقول لا تيأسوا فعلى الرغم من كل الأوجاع في الحياة إلا أنَّ الحبّ موجود ولا يعرف أحد متى يطرق باب قلبه، حتّى وإن عاش الإنسان في ظروف صعبة كهذه الظروف التي أعيشها، فسوف يأتي ذلك الخنجر لينغرس في صدر المحبّ.[15]

سيّدتي لو التقينا فجأةً

لو أبصرتَ عيناي تلكم العينين

لو اجتمعنا صدفة أخرى على الطريق

فسوف ألثمُ الطريق مرتين

الحبّ الملجأ

[15] المصدر السابق، 420

2.2. الحبّ وطن في الغربة:

تجربة الحبّ ليس بتجربة سهلة بسيطة، إنما هي تجربة تأخذ صاحبها إلى عالم آخر، وتجعله يشعر وكأنه مخلوق من طينية غير الطينة التي خلق الله منها البشر، لأنّ الحبّ يحوّل العناصر المادية إلى عناصر روحية، والفيتوري وسط كل هذا الضياع وظلم المستعبدين، إلا أنّه وفي قصيدة جميلة له تحت عنوان " أغنية في الضوضاء" يسأل محبوبته يا تُرى ما لذي عليّه فعله لكي تبقى بجانبه، فهي أنارت له طريق الحياة وهو لا يملك إلا هواها، قائلاً لها:[16]

ماذا أصنعُ لك...؟
يا أجملَ شيء في دنياي
ماذا أصنعُ لكِ
هل أملكُ شيئاً آخر غير هواي
الظُّلمة تملأ عيني
وقَيد الظالمِ حَولَ خُطاي
وطَريقي أخرسٌ

فالعشق أجمل ما رآه في حياته ولكن لابد أن يعاني الإنسان العاشق من لهيبه، ولابد أن يشعر بالاشتياق والعذاب تجاه من يحب، والفيتوري حاله حال أي محبٍّ يعاني

[16] الفيتوري 1/ 424-425.

من آلام الحب الحرمان، وهو يشعر بالظمأ القاتل للحبّ وخاصة إن هذه المحبوبة قد أصبحت كل شيء في حياته فيخاطبها قائلاً:[17]

ماذا أملك لكِ يا أختي؟
يا أختَ صباحي... ومساي
يا أغنيتي الحيرى، في هذي الصحراء
يا قيدي الأكبر... ويا سجني البشري
ويا جُرح هواي؟
ماذا أملك لك؟
هل أملكُ إلّا حُبّك ملءَ دمي
وبقايا من أملٍ باقٍ
يُلهبُني... ويثير أساي
ماذا أصنعُ لكِ ...؟
يا أجمل شيء في دنياي

الفيتوري لا يملك وسط كل الحروب ووسط الدمار النفسي والظلام الذي يخيم عليه إلا قلبه وحبه يعطيه لهذه المحبوبة، لأنّها أجمل شيء حصل له في هذه الحياة، فهي بالنسبة له ليس فقط حبيبة بل هي وطن يلجأ إليه في غربته، وعلى الرغم من أن قيود الظالمين مازالت في يديه إلا أن حبّها هو الوحيد الذي سوف يخلصه من هذه المعاناة.

[17] المصدر السابق، 430.

والمتمعّن لقصائد الفيتوري يلاحظ أنها مترابطة ببعضها بشكل كبير، أي أن هناك تلاحم شديد فيما بين البيت والذي قبله، لهذا السبب يُضطر إلى ذكر القصيدة كاملة في أغلب الأحيان حتى يُستطاع فهم ومحتوى القصيدة. ويُلاحظ أيضاً أنَّ قصائد الحبّ عند الفيتوري كلها تقريباً تشير إلى قيود الظالمين المستبدين حول معصميه، لعلّه يريد أن يوضح فكرة معيّنة إلا وهي أنّ الناس بالحبّ تستطيع أن تكمل حياتها على الرغم من كل الظروف السيئة، فلا توجد حياة سيئة محضة، بل علينا أن نعشق ونحب وسط كل الظروف المحيطة بنا.

3.2. الاتحاد مع المحبوبة:

الفيتوري هو شاعر يميل إلى الصوفية في كثير من أشعاره الغزلية، وهو عندما يحبّ تتّحدُ روحه بروح من يحبّ، ولذلك فإنّه يتصوّر أنّ حبيبته فوق مستوى البشر، فلا يوجد فرق بينه وبين محبوبته فهما جسدان في روح واحدة، وهذه هي طريقة الصوفيين في التعبير عن عشقهم، فيخاطب الفيتوري محبوبته قائلاً:[18]

يا حبيبتي التي تسكُنني
أنا الذي يسكنُ في مدائنِ الرّحيل
كانّ حبّك مُرتسماً فوق وجهي
ولذا حينما أبصروني
أبصرونا معاً

[18] الفيتوري 2/483- 484

وإذا مرة سألوني
تَخالطَ صوتي وصوتك في سمعهم
فأشاروا إلينا معاً

الشعراء الصوفيين يُفتَنون في المحبوبة حتى تذوب روحهم بروحها ويصبحان شخصاً واحداً. والفيتوري يسلك الطريق نفسه حين يذوب فيمن يحب، فهو لا يرحل إلا إليها، ويراها بأنّها قد اتّحدت بذاته حتّى أصبحا يعيشان بجسد واحد، وهذه الصور العاطفيّة لا تخفي معالم التجربة العاطفية في شعر الفيتوري فهو شاعر قلق عاطفي كان يخجل من أن يبوح بحبه، لذلك كان يتستّر على هذا الحبّ ويلمّح عنه تلميحاً في قصائده خوفاً من إفساده، ولكن ما لبث وأن تجرأ على البوح ولم يعد يخاف من إظهار عشقه فيقول في فتاة لبنانية أحبّها عندما كان في لبنان:[19]

إنّي أحبّكِ
جُرحي أنّي أحبّك
لكنّ قَلبك لا يعرف الحبَّ...
قلبُ صَنوبرة... سُلحْفاة
لماذا أنت أنا
يا ويلتاه
لقلبك هذا البناء القديم

[19] الفيتوري، معزوفة لدرويش متجول، 1/-483484

لماذا أحدّق فيك...
وتصعدُ بي صلواتي إليك تهوي..
لماذا أُحبّك أنت؟
أحلّق بالليل فوق سريركِ نجمة
وأغدو طفلاً عميق البراءة

وهو هاهنا يلوم قلبه لشدّة حبّه لها، ويصف قلب محبوبته مرّة بالصنوبرة اليابسة ومرة أخرى بالسلحفاة، والمعروف عن الصنوبر أنّه قاس وصلب، وعن السلحفاة أنها بطيئة المشي، فهو عاشق ولهان قلبه مليء بالحبّ تجاه هذه المحبوبة بينما هي قاسية القلب تبخل عليه بالحبّ والقُرب.

4.2. الحبّ والحرب:

الحبّ هو الحياة، ومن مِن البشر لم يفتح عينيه يوماً ليرى أنّ الحبّ هو الحياة، والشعور بالحياة، فالعشق يُغيّر حياة الإنسان، وعشق الفيتوري للمرأة كان عشقاً مختلفاً، فهو لم يكن يعيش في قصر كابن المعتز عندما تغزل بمحبوبته، ولم يكن يعيش رفاهية الحياة كما عاشها من قبله مثل امرئ القيس، لكنّه شاعر أحبّ وسط كل ما حصل له من غربة ونفي وانتقال من بلد إلى آخر، لكنّه أثّر به وأصبح أكثر رقة وعذوبة فعندما يخاطب محبوبته يناديها بـ"مولاتي"، وكيف لا تكون كذلك وهي أمل حياته، ويتمنّى أن يفرش

الأرض بالورود اعترافاً لها بحبّه، ويُلاحَظ ذلك في كثير من قصائده أولها تلك التي كتبتها في بيروت سنة 1967، في بداية ديوانه "معزوفة لدرويش متجول"، حيث يقول فيها:[20]

غضبي يا مولاتي
لو أعرف من أيّ الآفاق
تهبّ الريح
لكنتُ سبقتُ الريح
لأحجبَ رِيح الحزنِ القادم إلى عينيك
وأنصب عرشك قرب الشمس
لو أقدرُ كنتُ ملأتُ حديقتنا الجردَاء
بالزنبق والدِّفلي
ولكنّني لا أملك إلا الكلمة في شفتيّ
أسطرها حيناً في الصخر
وحيناً أنقشها مثل المجنون
على صفحات الماء

فلو كان بإمكانه لسبق الريح ليحجب عن محبوبته الحزن ويمنعه من الدخول إلى قلبها، ولكنه لا يملك سوى كلمة الحب ليقولها لتلك المحبوبة، لأنه أصبح عاشقاً مجنوناً بها، وسيكتب قصّة عشقه لها، ولكن من يتمعّن في قوله "على صفحات الماء" يدرك أن

[20] الفيتوري 1/468-469

هذا الحبّ سيكون مؤقّتاً، وسيكون سريع النسيان، ولعلّ السبب يعود في ذلك إلى عدم الاستقرار النفسي الذي يعيشه الفيتوري، والحروب الدائرة آنذاك، ومن المعروف أن العيش هناك لم يكن ثابتاً، فاليوم يعيش في هذا البلد، وغداً لا يعرف أين ترمي به الريح.

المرأة هي التي تكشف للرجل عن أمور في شخصيّته لا يستطيع هو نفسه أن يكتشفها، فالرجل لا يكون جذاباً أو ساحراً أو مغرياً أو عنيفاً أو قاسياً أو مكتمل الرجولة إلا في عيني المرأة التي تحبّه، لأنّها هي وحدها من تشعره برجولته."[21] وكيف لا تكون كذلك وهي التي قد ملكت قلب الرجل وعقله عبر العصور، فهو يهيم بها ويستغرق فيها، و يبتعد عن الجميع إلا عنها لأنها تمثّل قدره وهي النور الذي يستطيع من خلاله أن يرى النور، وإذا كانت صادقة معه فلن تكون محبوبة فقط، بل ستكون له جميع نساء العالم، وسيعشقها عشقاً كبيراً، وسيكتب بها أشعاراً كثيرةً.[22]

وأغرس عينيَّ فيكِ....
أصير أنا الطفل والشمس
أنتِ
كوني جميع النساء
أكن أنا كل الذين عشقوكِ
أنا العشق والشعراء

[21] زكريا إبراهيم، مشكلة الحب، 273.

[22] ديوان الفيتوري 423/1.

أنا كلّ من عشقوكِ[23]

ويتابع قصيدته ليقول لنا بأنّ محبوبته هي سبب هناء عيشه، هي سبب فرحه وسعادته، فهي ماء وسط صحراء قلبه، وهي كالمطر الهاطل على قلبه بعد جفاف طويل يقول ذاكراً محبوبته:[24]

وكأشجار الغابة
يخضوضر من أجلك حزني
ينمو... يتمدّد... يتسلّق روحي
وكأمطار الغابة
يتصبب من أجلكِ حزني
وكأصوات الغابة
يتعرّى من أجلك حزني

الفيتوري عانى الكثير الكثير وكان منشغلاً بالقضايا الوطنية وقضايا النضال لمجتمعه – وفجأة جاء هذا الحب الذي يشبّهه بالصيف الذي جاء إليه بعد شتاء طويل، وهو يعاني آلام الحبّ التي ليس لها نهاية ففي قصيدته "هواها" يصف حاله مع محبوبته عندما راح تلومه بأنها قد أصبحت في دفتر النسيان عنده، وأنها أصبحت قبراً من ذكرياته، وأنّ ظلام الحروب وسوء الأوضاع قد كان السبب في ضياعهما، فهو يقاسي

[23] الفيتوري 425/1

[24] الفيتوري 438/1-439

الحرمان ويسهر الليالي الطوال على ذكرها وهي في مخيّلته وعقله، فهو في حزن وكآبة كبيرين على فراقها ولكنها ماتزال تسكن في وجدانه وقلبه وإلا لماذا يسهر الطوال حتى مجيئ الصباح، فيعود ليقول لمحبوبته:[25]

تقولين يديّ ضَيّعتكِ
وأنّ هَواكِ العظيم... العظيم
زجاج تحطم فوق طريقي
إذن فاسمعي إنني سأغني
سيحيا هواك بقلبي كل صباح
ويذبل عند الهجوع...
فادفنه في خرائب نفسي
وألقي عليه تراب الدموع
وأسهر طول ليالي الشتاء
أضيء الشموع. وأطفي الشموع
وأقطف زهر الظلام الحزين
وأنثره فوقه في خشوع
وأحنو بكل كياني عليه
إلى أن يجي الصباح الجديد
فيحيا بقلبي هواكِ الشهيد

[25] الفيتوري 1/142-14-144

5.2. الحبّ مصدر الإبداع:

والعشق عنده مرتبط بما تستطيع به المرأة أن تلهمه من مشاعر وعواطف، وبقدرتها على توليد أفكار جديدة في نفسه، فهي ملهمته، ويراها الفانوس السحري الذي يلهمه الصور والأخيلة التي تساعده على الإبداع. ففي قصيدته "محادثة عاطفية داخل زمن الحصار" يخاطب محبوبته قائلاً:[26]

إنْ قَتلوني
فَمِن أَجلِ حُبّك أَنتِ
وإنْ عذّبوني
يا نعمةَ الحب
في زمن السّفن الحجرية
يحدث أن تصبح الأرض أرضين
أرض الترحّل فيكِ
وأرضُ الرحيلِ إليكِ
يحدث أن تلد الكلمات والضحكات
يحدث أن تأتي الإبداعات
ويحدث أن يلتقي اثنان
وجهي ووجهك

[26] الفيتوري، ابتسمي حتى تمر الخيل / 484-485

في وجه البندقية

وأن يصبح اثنان

حبي وحبك

بعض شهود القضية

فهي أمنه وأمانه، هي كل الأراضي التي يلجأ إليها بعد النفي، وهو مستعدّ للموت من أجلها، وإن حصل وعذّبوه من أجلها فسوف يصبح ممنوناً، لأنها ستكون معه حصناً منيعاً في وجه المستعمر، ستكون سنداً له، يستمدّ منها قوته وجبروته، وإن حصل وقتلا معاً فإن حبّه وحبها سيكونان شاهدين على ذلك.

6.2. الحب وإفريقيا:

الفيتوري شاعر إنساني من الطراز الأول، علاقاته العاطفية مرتبطة بالوضع الإنساني عامة، والوضع الإفريقي خاصةً، فإن كانت البلاد بخير فعشقه بخير، وإلا لا، فعندما تضيع البلاد تفشل علاقاته العاطفية، فكيف له أن يشعر بالاستقرار وحبيبته الأولى (البلاد بشكل عام) مدمّرة. ففي قصيدته "الليل والحديقة المهجورة" يربط فشل تجربته العاطفية بالضياع الذي أصاب إفريقيا، فكيف له أن يعيش هو في حبّ وهناء بينما تعاني إفريقيا الأحزان حيث يقول:[27]

سُرعان ما أنسى

فلا أذكر من أنتِ... وأين؟

[27] الفيتوري 1/388-389

رأتكِ عيني... أنت يا عيني

يا عِرق الحنين

سرعان ما أنسى

فلا أذكر حتى ذكرياتي

أتركها خلفي

وأمضي لحياتي

يا مرآة ذاتي

لا تحزني... لا تجعلي روحك سوداء الصفات

وانسي حكاياتي... وضوضائي

وانسي كلماتي

إني سأنساكِ

3. التصوير الحسّي للمرأة:

الفيتوري يميل في شعره الغزلي إلى تصوير المرأة تصويراً حسيّاً، ويصور طبيعة العلاقة بينهما في صور عاطفية، لاتصف جسد المرأة ومفاتنها، بقدر ما تلهمه الكثير من المعاني والكلمات الجديدة، فهي لم تكن بالنسبة له مجرّد جسد يحبه، بل كان مصدر إلهام واسع له، يستمد منه خيالاته فيخاطب محبوبته:[28]

لم أجدْ غير نافذةٍ في سمائك

[28] الفيتوري، قوس الليل، قوس النهار / 65.

فألصقت عيني فوق الزجاج

لعلي أراكِ

لماذا تغيبي

كأنك لم تدر أني زرعتُك في جسدي

و ما زلت أُولد في زهر الكلماتِ

إنّ هذا الجانب من الحب يوضح لنا تجربة الفيتوري في الحب وفي علاقته مع المرأة ومدى تقديره لها، فهو لا يتّخذ من الجسد هدفاً له، فهو يتعامل معها وكأنه نور ينير له الطريق، ويمهد لعمق إنساني، فهو ليس من الشعراء الذين يبحثون عن جسد ليرضي رغباتهم الجنسية، لكنه يبحث الروح الحقيقية المتمثلة بالعواطف، وهو يخاطب المرأة بشكل راقٍ، ليس فيه غاية إلا الإعلاء من شأنها.[29] ولا يُفهم من هذا الكلام أنّ الفيتوري لم يكن يهتمّ للجمال الخارجي للمرأة فهو حاله حال أي إنسان يحب الجمال ويعشقه، ولكنه كان يهتم كثيراً بما كان يسميه "الضوء الداخلي"، وهذا ما يفسّر سرّ تقلّبه في علاقاته من علاقة إلى أخرى حيث يقول في إحدى مقابلاته كما ذكر الدكتور غريد الشيخ "إنّني أبحث عن الضوء الداخلي، وجهُها الجميل يهمّني، جسدها الجميل يهمني، صوتها، أداؤها الإنساني ولكن فيما وراء هذا كله هي بالنسبة لي طاقة، أرى روحها كيف تضيء، انعكاس ضوئها على روحي هو الذي يفجرني شعراً. ومن هنا تزداد

[29] أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، ط6، 1994، ص 312

علاقتي بها كلما ازدادت هي توهجاً في داخلي. هذه العلاقة قد تطول وقد تقصر، قد تضئ الكون، وقد لا تضيء إلا مساحة صغيرة في داخلي."[30]

4. المرأة المخادعة:

لم تكن المرأة هي من يلهمه المشاعر والأحاسيس والحنان فقط، بل بعضهن كان مصدر ألم وعذاب له، فعندما وقع في حب فتاة من البشرة البيضاء وصفها بالأفعى، ولم يذكر اسمها لأنّه على الأغلب لم يبقَ في علاقة حبّ معها لأنها كانت من العرق الأبيض، وهو يعاني من التفرقة والعنصرية وخاصّة من عقدة اللون، حتّى أنّ اسم القصيدة كان يحمل هذا الاسم "الأفعى" ففي البداية أحب تلك الفتاة لجمالها ولكن ما لبث وأن تَذكّر حقدها على أصحاب البشرة السوداء (الأفارقة)، فيقول في ذلك:[31]

في ذلك الركنِ من قلبك
الحقيرِ المُرائي
تمتد مَقبِرَةً ضَخمَةٌ
بغيرِ انتهاء
فيها عبيد عَرَايا الأسى
عرايا الشقاء
تحملُ أَيْدِهِمُ الشَّوْهَاءِ

[30] غريد الشيخ، أيام مع الفيتوري، 111
[31] الفيتوري 123/1

حقد الدِّمَاءِ

وملءَ أرواحهم

نقمةً على الأحياء

فقد تذكّر ذلك الحقد الدفين بينهما وأن قلبها مليءٌ بالحقد تجاه السود وهذا الحقد لن ينتهِ. تذكر ظلمهم وقتلهم للسود، وبالرغم من هذا الحب لتلك الفتاة البيضاء إلا أن حبّه لم يستمر، فتحوّلت القصيدة إلى صراع بينه وبين ماضيه. فقد كانت قصّة حبّ جميلة لكن الخداع طرق باب حبهما فأبعدهما عن بعضهما البعض، فقد كان حبّهما أشبه برواية جميلة تتداولها ألسنة الناس، يقول:[32]

كان ليلٌ... وكان صبحٌ

وكانت قصةً آدميةً محتومةً

فلقد مثّلتِ أدوارها معي يا أثيمة

ومضينا أنا وأنت

وكأن لم تكنْ لنا ذكريات

حفرتها أقلامُنا المحطمة

ونسينا... أنا... وأنتِ

هوانا العنيف كم كان ضخماً

والمواعيد والأماني القديمة

[32] الفيتوري، ابتسمي حتى تمر الخيل، 446.

حينما كنت يا شقية

كنت تحيين في دمائي

وأفنى أنا في ساعديكِ... في ديمومة

فاسألي كل ذرة فيك

تصرخ: إنّني كنت في يديه غنيمة

ويشير هنا إلى أنّه لا مشكلة عنده في الحب بين الأبيض والأسود، ولكن ظلم البيض للسود كان موجوداً حتّى في الحب، وهذا ما يؤكّده كلام الدكتور صلاح فضل عندما قال " والذي لا شكَّ فيه أن حبّ الشعراء السود له طابعه الخاص، ذلك لأنهم لا يتفرغون لمباهج الحب، ولا تتاح لهم سعاداته الصغيرة والكبيرة، ولأن الدائرة ضيقة عليهم في هذا المجال... ثمّ إنّهم عندما يمدون أعينهم وقلوبهم خارج دائرة الأنثى السوداء يصابون بالإحباط." [33]

ولكن على الرغم من كل ما تعرّض له من آسى وظلم من المحبوبة، إلا أنّه ما يزال يحن إلى أيامها ويحن إلى قلبها، فقد كانت ترسم بسمة الصباح على وجهه، وهي من أشعل في قلبه نار الحب، فيعود في نفس قصيدته ليخاطبها بقوله:[34]

غير أني لا زلت ظمآن

[33] صلاح فضل، الأساليب الشعرية المعاصرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، بيروت، لبنان، 1997م، ص 84.

[34] الفيتوري 1/179-180

لم أزل جائع إلى الصيف

فتعالي يا لعنتي

قبلما تذبلين

وبعينيك... يا لآلام عينيك

حنين إلى الليالي اليتيمة

ذكر الفيتوري في قصيدته التي تحمل عنوان "امرأة عاشقة" هذا العناء مخاطباً فتاة بيضاء قد عشقها بأن حبه لها لم يكن كذباً ولا رياءً، وأن هذا الحبّ لم يكتب له الدوام، لأنّ المجتمع- كما يُسميّه الفيتوري "الأبيض" – قد أفسده لأنّهم يرون بأنّه ليس من حق الزنوج أو السود عشق أسيادهم فهم فقط عبيد عند أسيادهم البيض ويرجو منها ألا تسميّه بخائن الحبّ بقوله:[35]

لا... لم يكن وهماً هواكِ

ولم يكن وهماً هَواي.

إن الذي حِسبته رُوحُك

قد تبعثر في خطاي

ما زال طفلاً صارخاً

جوعان يرضع من دماي!

وترددين...

[35] الفيتوري 463/1.

كيف اختفت أيامه البيضاء

من عمري الحزين

فمازال يحنُّ إلى أيامها، ويحتاج إلى عشقها وحبّها، فصحيح أنه كان أسود البشرة، لكنّ حبّ تلك الفتاة جعلت أيامه بيضاء. فالحبّ كما يقول زكريا إبراهيم" الحبّ يكشف لنا عن ذواتنا، حين يسمح لنا بالخروج من ذواتنا، وفضلاً عن ذلك فإن الحب صور من صور الإدراك الحسّي نستطيع عن طريقه أن نرى أرضاً جديدة، وسماوات جديدة دون أن نفارق الموطن الأصلي، الذي طالما عشنا فيه، وربما كان هذا هو السرّ الأعظم في الحب."[36]

خاتمة:

لقد عرفنا من خلال هذا الكلام سمات العشق عند شاعرنا الفيتوري، فهي لم تأخذ اتّجاهاً واحداً، فكانت المرأة عنده نوعين **أولهما**: المرأة الوفية التي لا تخون محبوبها على الرغم من كل الظروف، وقد وصفها وصفاً حسياً وصوّر العلاقة بينهما، فكانت تلك العلاقة هي التي تجلب الطمأنينة والدفء، فكانت المرأة حبيبته الثانية، فإفريقيا هي عشقه الأول، فعلاقاته العاطفية مرتبطة إلى حدّ بعيد بالوضع العام في بلاده، **وثانيهما**: هي الخائنة المتمثّلة بالبيضاء، وهي أشبه بأفعى سامّة تحاول بثّ سمومها في قلب من تحبّ. وأخيراً نستنج أن التجارب العاطفية التي عاشها شاعرنا الفيتوري، هي ليست فقط للمرأة المحض، بل كانت المرأة عنده هي الوطن، فكما أنّ المرأة هي مسكن الرجل وبيته

[36] زكريا إبراهيم، مشكلات فلسفية، مشكلة الحب، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، د.ت، ص 273.

الأصغر، فإن البلاد سكنه ومأمنه، وقد ربط كثيراً بين قصائده الغزلية، والالتزام بالقضايا الافريقية والعربيّة، وعرفنا أيضاً أن قصائده التي تتحدّث عن الحبّ عندما تأتي بشكل منفرد، فإنّها تأتي خفيفة رشيقة لأن ذلك يتناسب مع طبيعة المرأة، فهي رقيقة حساسة، على عكس قصائده التي تتحدّث عن النضال ومقارعة الاستعمار فتكون أكثر حدّة، فكما يُقال لكل مقام مقال. ولكن في كل قصائده العاطفية تقريباً يستخدم كلمات قاسية مؤلمة "خنجر، يأس، وطن غريب، كآبة، عمري الحزين، حقد الدماء" وهذا يدلّ على الحالة النفسية الصعبة وعدم الاستقرار النفسي الذي كان يعيشه الفيتوري، فكيف له أن يعيش علاقات، بينما البلاد تعاني من الضياع والاستعمار. وهذا إن دلّ على شيء فيدل على حسّ الشاعر المرهف. وقدرته على الربط المواضيع بين الموضوعات الشعرية المتنوعة.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم، زكريا، مشكلات فلسفية، مشكلة الحب، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، د.ت.
- إبراهيم، زكريا، تأملات وجودية، دار الآداب، لبنان، بيروت، 1962.
- التوم، حسن صالح، الاتّجاه الإفريقي في الشعر السوداني المعاصر، دار الشروق، عمان، الأردن 1990.
- رضوان، حنفي، الفيتوري عذاباته سرار بدعاته، مكتبة البيان، الكويت، 2003.
- عايدي، علي جمعة، شعر محمد الفيتوري، الرؤيا والتشكيل، لبنان، بيروت، ط1، 1975م.

- عباس، إحسان، اتّجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، عمّان، الأردن، ط2، 1992م.
- عبد الله، محمد أنس، وصف الطبيعة الحية في شعر البحتري، مقالة، المجلد الخامس، 2023.
- غازي، محمد جميل، الصوفية الوجه الآخر، المركز الإسلامي العام، القاهرة، 1983.
- فضل، صلاح، الأساليب الشعرية المعاصرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، بيروت، لبنان، 1997م.
- الفيتوري، محمد، ابتسمي حتى تمر الخيل، لبنان، بيروت، 1975م.
- ـــــــــــــ، معزوفة لدرويش متجول، دار المصراتي، طرابلس، ليبيا، ط1، 1969.
- ـــــــــــــ، ديوان الفيتوري، دار العودة، بيروت، لبنان، 1972م.
- ـــــــــــــ، قوس الليل وقوس النهار، دار الشرق، القاهرة، ط1، 1994.
- محمد، سراج الدين، الغزل في الشعر العربي، دار الراتب، بيروت، لبنان، 1970م.
- نجيب، صالح، الفيتوري والمرايا الدائرية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985.
- هيكل، أحمد، تطوّر الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، ط6، 1994.